يجوز!

وأبصرتُها
تسير مصادفة في الزحامْ
وكم كنتُ أرغب ألّا أراها.. ولا نلتقي
فقد قلتُ قبل الفراق سأمضي بلطفٍ.. فلا تقلقي
وحين التقينا.. بدتْ لي حزينهْ
بوجه عليه شحوب وفيه اصفرارٌ
كلون العوادم في جوّ هذي المدينهْ
لديها من العمر عشرون عاما
ووجه عليه سنينُ بأكثر من ألف عامْ
وحين اقتربنا.. بدتْ لي كأمٍ عجوزْ
فهل أنهكتْها الحياةُ؟
يجوزْ!

بدتْ لي بعينين لا تحملان بريقا.. كأرض تبورْ

وجسم نحيلٍ.. كجسر عتيق تمر عليه الدهورْ!

فأين الزهور على وجنتيها؟

متى ذبلتْ فجأة ذي الزهورْ؟

متى كان هذا؟! وكل الذي مرّ بعض الشهورْ

مررتُ ولكنّها استوقفتْني.. وقالتْ: سلاما

فقلتُ: سلامْ

فقالتْ: تكلمْ

فقلتُ: وماذا يفيد الكلامْ؟

فقالتْ: أجبني ليهدأ قلبي..

أتذكر ما بيننا من غرامْ؟

أتذكر كيف بدأنا الحديث لأوّل مرّهْ!

أتذكر أوّل نظرهْ

وأوّل قول يدل على الاهتمامْ؟

أتذكر حين استرقتُ النظرْ؟

لتنشر عيناي ذاك الخبرْ

بأنّي أحبّكَ فوق البشرْ

وفوق الجنون.. وفوق الهيامْ

أتذكر مثلي حديثا طويلا.. من الصبح يبدأ حتّى ننامْ

أتذكر حين ابتسمتُ وقلتُ: أحبكَ!

كم كدتَ تفقد هذا الثباتْ

وأيّام بادلتَني الأغنياتْ

وكم كنتَ تخجل حين تخاطب بعض البناتْ

وتلفظ أسماءنا باحترامْ

أتذكر حين وصفتُ دواءك حين أُصبتَ ببعض الزكامْ؟

وحين ضحكنا؟ وحين بكينا؟ وحين اختصمنا

أتذكر لذّة هذا الخصامْ؟!

وكيف غضبتَ لأنّ اعتذاري كثير

وكيف ضحكتَ لأنّي كتبتُ "النوايا" "نوايه"

وكم كنتَ تسخر منّي، لأنّي أقول كثيرا "تمامْ"

وحين سكرنا ببعض الحديثْ

على هاتفينا نطيل المكوثْ

نحسّ بأعيننا تستغيثْ

وحين سألتَ أيزعجني أنّنا نتحدثُ في كل وقت..

وعن كلّ شيء..

فقلتُ: كلامكَ يثمر دوما

وصار حديثكَ من متعتي

وصوتكَ صار صديقي وأُنسيَ في وحدتي

أتعلم أنّي كتبتكَ فوق جميع الدفاتر في غرفتي؟!

وفوق كتاب "الدلائل"، فوق كتاب "المصادرِ"

فوق البحوث وسبّورتي

على كلّ شيء كتبتُ "هشامْ"

وباسمكَ كنتُ أُنادي رفاقي

فهذا هشامٌ.. وهذا هشامٌ.. وهذا هشامْ!

أتذكر ما كان في رمضانْ؟

لقد كنتَ تشرح لي كيف تطهو طعاما شهيّا

وعلّمتَني كيف أطهو الدجاج مع الأرز والخلّ والزعفرانْ

حديثكَ كان رقيقا، شهيّا

وكم كدتَ تُفسد صومي كثيرا

ويُنقذني منكَ صوت الأذانْ

لقد كنتَ أصعب ما في الصيامْ

تدور أحاديث لا تنتهي

بحبّ وشوق وبعض الدلالْ

وعقلي يدور بألف خيالْ

وروحكَ تسبح في غرفتي

لقد كنتَ ترسم لي بسمتي

ولا تتوقّف حتّى تغيب وتتركني لصلاة القيامْ

وحين تعود الحديث يدورْ

وفي مرّة كنتُ أطهو السحورْ

وحدّثتَني بحديث جميل

فألهيتَني.. وحرقتُ الطعامْ

وأرسلتُ من هاتفي قبلة.. وعذتُ بربّي

لأنّي أُقبّل وجهكَ دوما

بثغري.. وعينيّ.. حتّى بقلبي

وأنتَ!

لقد قلتَ إنّكَ تشعر بالأمن والصفو في حضرتي

وإنّكَ تعشق وجهي.. وغمازتيّ.. وقلبكَ يخفق من بسمتي

وحين جلستَ معي لتجرّب نظّارتي

لقد كنتَ تخدعني آنذاك لتبصر عينيّ دون زجاجْ

وأخبرتَني أنّ وجهي منير كـألف سراجْ

وأنّي كبدر التمامْ

أتذكر شِعركَ حين تغزّلتَ فيَّ وقلتَ:

"بوجهكِ بدر رأيتُ تمامهْ .. ولم أرَ أعذب منكِ ابتسامهْ"

ظننتُكَ تكتب هذا لغيري!

وقلتُ من المستحيل اهتمامكَ بي!

لقد كنتُ مهملة في ثيابي وفي مظهري

لماذا تعلّقتَ بي؟

وكان أمامكَ أجمل منّي.. وأظرف منّي.. وأعلم منّي!

لقد كنتُ في كلّ شيء فقيرهْ

لماذا أنا! والنساء كثيرهْ؟

أظنّكَ فسّرتَ هذا فقلتَ:

جمالٌ؟ هناك التي هي أجمل منكِ

قوامٌ؟ هناك التي هي أرشق منكِ

أرى فيكِ فضلاً

وأنظر نحو النساء لألقى.. هناك التي هي أفضل منكِ

لماذا أصرّ عليكِ إذنْ؟!

لأنّكِ حين همستِ أحبّكَ.. لم أرَ في الكون أصدق منكِ

صدقتَ!

لأنّي عشقتكَ جدًّا

عشقتُ بعقلي.. بروحي.. بقلبي..

وكنتَ تصدّق هذا الغرامْ

هشامْ

بديني وربّي

غرامكَ يعصر قلبي

وهم فعلوا كلّ شيء لغصبي

ولكنّ حبّك عاش ودامْ

هشامْ..